◆ يقظة التفكير الأوربى
«على صوت ابن رشد »

الفلسفة أسلوب ومنهج قبل أن تكون معارف وكليات ، فدور الفلسفة عميق الفكرة، بارع التحليل ، يسبر الأغوار ، ويرصد الأبعاد والأطوال ، لذلك كان أصحاب الفلسفة ممن يمارسون الأدب على جانب قوى من البصيرة والنفاذ ، يصدرون عن أصالة حية ، ويتجهون بأفكارهم الخصبة وجهات سديدة صائبة ، وقد أورثوا الأدب فى شتى فنونه المختلفة – من مقالة ، وقصة ، ورسالة ، وملحمة – دسامة قوية حية ، فوجهوا الأدباء الخلص إلى العمق والإحاطة والاستشفاف ، والاحتكام إلى موازين دقيقة فى المقدمات والنتائج ، أما الفلاسفة الأدباء ممن رُزقوا روح الفنان وعقل الحكيم ، فقد جاءت كتاباتهم نمطًا رفيعًا من الإبداع ، فمقالات «بيكون » الأدبية تجمع بين العمق الفلسفى والخيال الأدبى جمعًا رائعًا يدهش القارىء ويروعه ، وأسلوب «فولتير» ذو سحر رائع لا يُقاوَم ، لأن الفلسفة الصائبة تحيط به من أقطاره ، وتوطىء له الدعائم والأسناد ، ولولا نصيب «ويلز » من الفلسفة ما اقتعد ذروة الأدب فى تاريخ إنجلترا المعاصر .

ومهما وجد لدى كتَّاب أوربا فى عصور النهضة من دسامة وقوة فمرجعه إلى تعاطى الفلسفة والصدور عنها فيما يتناولون من بحوث ، لذلك لا نكون مبالغين حين نجزم بأن

أسلوب الفلسفة فى البحث قد أكسب الأدب قوة حية ، جعلت رجاله زعماء نهضات ودعوات ، ومَنْ قَلَّ نصيبه منها فهو دون أصحابها استقامة سبيل ، واتساع أفق ، وارتفاع تحليق .

وحين نرصد أهاب الفلسفة على أوربا فى افتتاح عصر النهضة ، نجد ابن رشد صاحب الصوت المجلجل فى إيقاظ الأسماع ، وتنبيه الغافلين إلى أساليب الفلسفة ومناهجها فى البحث والدراسة ، ثم يأخذنا العجب كل العجب إذ نرى هذا الفيلسوف الأندلسى المسلم لا يجد حواريه فى أبناء لغته ودينه من المشارقة ، ولكنه يجدهم فى اليهود، من أطباء وأحبار ، وفى المسيحيين ، من أباطرة وأساتذة وكهنة ، هؤلاء هم الذين نقلوا كتبه وشروحه ، وترجموا أفكاره وبحوثه ، فهدتهم إلى مفاتيح الثروة الفكرية الخالدة ، وأصبحوا بها أغنياء مترفين ! .

قُدِّرَ على ابن رشد أن يأتى بعد الغزالى ، ليرى نجاحه الساحق فى هدم الفلسفة بالمشرق ، حيث حاربها أبو حامد محاربة مكتسحة ظافرة ، حاربها بأسلحتها المنطقية بعد أن خبرها ووقف على ما ظنه مقاتل مبيدة ، وقد قسم الفلاسفة إلى طوائف مختلفة ، فطائفة جحدت الصانع وقالت بقدم العالم ، وطائفة أنكرت البعث وما يعقبه من ثواب وعقاب ، وآخرون توغلوا فى دراسة الرياضيات والطبيعيات والمنطقيات والإلهيات ، فأصابوا مرة وأخطأوا مرات ، وقد اختلط الخطأ لديهم بالصواب اختلاطًا لا يثمر غير التخبط والارتكاس .

ثم مضى ينقض براهين الفلاسفة بأمثالها ، مستعينًا بالأقيسة والحجج العقلية تارة ، وبالأدلة الشرعية – من نصوص قرآنية وأحاديث نبوية – تارة أخرى ، ناهجًا نهج علماء الكلام فى الرد والتوهين ، ثم أعلن فى النهاية فقدان الثقة بأقيسة المنطق وبراهين الفلسفة، ورأى فى التصوف منجاةَ الحائر ، وملجأَ المسترشد ، إذْ يدرك به من الاطمئنان النفسى ما لا يدرك بالحجج والأقيسة .. وكان تصوف الغزالى تصوفًا معتدلاً ، بعيدًا عن مغالاة النظريين من ذوى الشطحات ، وقريبًا من منهج الصحابة فى الزهد والخشوع

والتواضع ، فوافق أهواء الناس لعهده ، فاعتنقوه عن إخلاص ورغبة ، ونفروا من الفلسفة نفورًا جعلها مدعاة الزندقة وباب الإلحاد .

وقد حاول ابن رشد أن يعيد للفلسفة مقامها لدى المسلمين بعد أن تساقطت مترنحة تحت ضربات الغزالى ، فألف كتابه «تهافت التهافت» ، يرد به على كتاب الغزالى الشهير بتهافت الفلاسفة ، وقد قال فى مقدمته : إنَّ تعرُّضَ أبى حامد إلى مثل هذه الأشياء على هذا النحو لا يليق بمثله ، لأنه لا يخلو من أحد أمرين : إما أنه فهم هذه الأشياء على حقائقها ثم شرحها على غير وجهتها ، وهذا فعل الأشرار ، وإما أنه لم يفهمها على حقيقتها فتعرض للقول فيما لم يحط به علمًا ، وهذا من فعل الجهَّال ، والرجل يجل عندنا عن هذين الوصفين ، ولكن لا بد للجواد من كَبْوَة .. ثم مضى يناقش أبا حامد فى كل ما تعرض له .

ولكن كتاب ابن رشد عن الغزالى لم يجد مَنْ يقرؤه فى الشرق ، وظلت آراء الغزالى فى الفلسفة راسخة لا تتزعزع ، حتى مطلع القرن العشرين ، إذ نقل الأستاذ فرح أنطون فلسفة ابن رشد إلى قراء العرب مترجمة عن «رينان» ، فبدأ الفيلسوف الأندلسى يأخذ مكانه لدى أبناء لغته ودينه ، أما أثره البعيد فى التفكير الأوربى بعامة – منذ فارق الحياة – فهو ما نحاول أن نجلوه فى هذه السطور ، لنرى كيف دق الأجزاء المرنة فى عالم نائم غافل ، فلفظت المضاجع على رناته المجلجلة جنوب النائمين .

لقد جاء دور ابن رشد فى المعترك الفلسفى بعد أن تقدمه فى الشرق أفذاذ نوابغ من أمثال : الكندى ، وابن سينا ، والفارابى ، وإخوان الصفا ، ممن أسهموا فى البناء الفلسفى إسهامًا تَرَدَّدَ صداه فى كل مكان حتى وصل إلى الأندلس ، فأنتج بها فلاسفة حكماء من أمثال : ابن باجة ، وابن طفيل ، وابن زهر ، وكأن الأقدار جعلت ابن رشد خاتمة هؤلاء ليستطيع أن يقرأ ما كتبه سابقوه قراءة الفاحص الناقد ، ثم يضع النتائج النهائية لدراسته المتأملة ! وهو بعد صاحب ذهن فلسفى بعيد المطارح . وقد عشق «أرسطو» عشقًا تمكن من نفسه ، وسيطر على نزعاته ، حتى عَدَّهُ المثلَ الأعلى للفكر فى الحياة ، بل ارتقى به عن الحدود البشرية إلى أن صار فى اعتباره المفكر الإلهى ، وقد قال

عنه فى مقدمة كتابه عن الطبيعيات إنه أعقل أهل اليونان ، وواضع علوم المنطق ، والطبيعيات ، وما وراء الطبيعة ، إذْ إنَّ جميع من أتوا بعده من الفلاسفة لم يستطيعوا أن يزيدوا شيئًا عَمَّا وضع ، أو أن ينقدوا قضية وصل إليها ، ثم قال : «فلا ريب فى أن اجتماع هذا العلم فى إنسان واحد أمر عجيب يوجب تسميته ملكًا إلهيًّا لا بشرًا ، ولذلك كان القدماء يسمونه أرسطو الإلهى ! » .

وقد دفعه هذا التقدير البالغ إلى شرح أكثر ما كتب أرسطو من المؤلفات شروحًا مختلفة ، منها : الوجيز ، والمتوسط ، والمبسوط ، وإذا كان ابن سينا قد خالف أرسطو فى كثير من قضاياه ، فإن ابن رشد قد هاجم مخالفيه ، ووقف وقفات حاسمة أمام ما عُورِضَ به ، وأصبح فى نظر التاريخ الفلسفى الشارح الأكبر لفيلسوف اليونان ، وتعرَّض إلى محن كثيرة من لجاجات العامة ، حتى نُفى إلى غير موطنه ، وطُرد من المسجد حين أَمَّهُ للصلاة ، ولكنه لم يتخلَّ عن منهجه الفلسفى ، بل شغل وقته بالشرح والدراسة حتى هُيِّئَتْ له الأسباب ، مِنْ نَقْلِ شروحِه وآرائه إلى اللاتينية ، لتكون مصباحًا هاديًا ينير الدراسات الفلسفية ، ويبرز «أرسطو » فى وضع جديد .

ولا يمكننا أن نحدد أثر ابن رشد فى إنهاض الفكر الفلسفى بأوربا إلا حين نعرف حال الفلسفة فى القرون الوسطى قبل ابن رشد ، فقد تأكد لدى بعض الأفهام أن الفكر الإغريقى قد زحف إلى أوربا الغربية مع الزحف الرومانى ، وأن العرب - بناءً على ذلك - لم يضيفوا شيئًا ذا بالٍ إلى الفلسفة الإغريقية ، إذ إن ترجمات ابن رشد وشروحه لم تأتِ بجديد حين نُقلت إلى اللاتينية ، بل كانت نسخًا مكررة للذائع المشتهر ، وهذا خطأ ظالم مغرض ، لأن الباحث فى تاريخ أوربا فى العصر الوسيط يرى أن الكنيسة كانت تدرس الفلسفة الإغريقية من خلال المعتقدات المسيحية ، فهى تدور بها فى مجال العقيدة لتؤيد ما لديها من نصوص ، حتى لَيُخَيَّلُ لقارىء هذه الفلسفة أن أرسطو وأفلاطون وأحزابهما قد وُجدوا بعد المسيح ليؤيدوا تعاليمه ، ويجروا فى فلكه ، وقد حظر البحث عن أى حلٍّ من الحلول الفكرية لا يلائم النصوص ، ولا يسير وراءها شبرًا بشبر .

وإذا كان الفيلسوف «سانت أوجوستان» قد فطن إلى التناقض الصريح بين مسائل الفلسفة الإغريقية والدين المسيحى ، فإنه لم يعلن ذلك صريحًا كما ارتآه ، بل جعل يوفق بين الآراء فى أسلوب متكلف ينادى بالافتعال ، وكان خيرًا له أن يعلن أن الفلسفة الإغريقية شىء آخر غير تعاليم المسيح ، بل إن المسيح لن يكون صاحب رسالة كبيرة إذا كان جميع ما أتى به موافقًا لما سبق أن حَكَم به أرسطو وأفلاطون ، وإذا كانت الفلسفة الإغريقية تسير على الوضع الكنسى ، فإن شروح ابن رشد وأضرابه لها فاجأت أوربا بالطريف ، ودفعت بالأنظار المتطلعة إلى أفق جديد .

وقد مُنيت الفلسفة الإسلامية باضطهادٍ أليم من الرأى الغربى العام ، إذ تواطأ أكثر الباحثين على أنها نَقْلٌ وترديد لفلسفة الإغريق ، فهم يرددون ما عبر عنه «ألفريد جيوم» فى تراث الإسلام حين قال : «إن الشعوب الناطقة بالضاد لم تفعل شيئًا أكثر من أنها استولت على الفلسفة اليونانية ، التى كانت شائعة بين المسيحيين من أهل سوريا ، والمثقفين من أهل حران ، والوثنيين ، ثم أضافت إليها بعض عناصر استمدتها من فارس والهند ، وأن من الحق أن نرد الفلسفة العربية فى مادتها وصورتها وغايتها إلى حضارة البلاد التى غزاها العرب ، وأن نعتبر الفلسفة اليونانية الْمَعِين الذى استقوا منه مذهبهم» .

وقريب منه قول «أرنست رينان» : «ومن عجائب القدر أن هذا الجنس السامى الذى استطاع أن يطبع ما ابتدعه من الأديان بطابع القوة فى أسمى درجاتها ، لم يثمر أدنى بحث فلسفى خاص ، وما كانت الفلسفة قط عند الساميين إلا اقتباسًا صِرْفًا ، وتقليدًا للفلسفة اليونانية !!» .

إلى أمثال هذين الرأيين لعشرات الباحثين ، مما تفيض به صفحات القوم دون إنصاف وتحقيق ، والرد عليها واضح صريح ، لا يعتسف به الباحث فى شعاب وعرة منقطعة ، تكتنفها الأشواك والصخور ، بل يدعوه إلى قراءة ما أنتجه فلاسفة الإسلام حين تمسكوا بحرية الفكر التى دعا إليها القرآن ، وَنَأَوْا عن التقليد الفاضح الذى عابه الإسلام ، فناقشوا فى علم الكلام ما يتعلق بالأزل ، والأبد ، وحرية الإرادة ، وأفعال العباد ،

وقُدرة الله ، مناقشة تعتمد على الدليل العقلى اعتمادًا أساسيًّا ، فإذا استندت إلى النص فذلك استئناس لا استدلال .

وقد انتقلت مؤلفات أرسطو وأفلاطون إلى الأوربيين مُحاطَة بالفكرة الإسلامية ، وبشروح المفكرين من أمثال : ابن سينا ، والفارابى ، وابن رشد ، وبهذه الشروح أطل العالم الأوربى على نمط جديد غير مألوف ، واستيقظ من سُباته ليرى موقفين متضاربين : موقف الكنيسة ، حين تجعل العقيدة المسيحية مبدأً لكل بحث فلسفى ، وموقف فلاسفة الإسلام ، حين يحتكمون إلى المنطق بحججه وأقيسته مجردًا عن كل فكر سابق .. هذا الموقف الجرىء قد دفع بالفلسفة الإغريقية دفعة جديدة ، إذ أبعد عنها الكنيسة وأصبحت بشروح العرب ذات اتجاه جديد .. وإذا كان مِنَ الفلاسفة الإسلاميين مَنْ خالفوا الجمهور فى بعض الأصول ، فذلك شىء طبيعى لابد أن يتمخض عنه اختلاف العقول وتباين النظرات ، وهو مما يشير إلى الحرية التامة حين تكتسح القيود والأَسْدَاد .

نستطيع بعد هذه الإلمامة أن نتابع تأثير ابن رشد فى أوربا الغربية ، فنرى أنه – برغم قلة تأثيره فى المشرق ، أو فقدان تأثيره على وجه التحديد إذ ذاك قد نال أكبر شهرة عند اليهود ، باعتباره شارحًا لكتب أرسطو ، فكانت شروحه تُنقل إلى اللاتينية على أنها نصوص يقينية ، ومن أشهر مقدريه معاصره الشهير «موسى بن ميمون» ، إذ بذلك أكبر جهد فى إنشاء مدرسة رشدية ، ونقل شروحه إلى العبرية واللاتينية ، غير أننا نرى باريس فى حياة ابن رشد تتأثر بالمناهج العربية ، إذ تصبح مركزًا للفلسفة المدرسية ، ثم تمتد بها الأيام فتصبح فى مطلع القرن الثالث عشر حومة جدل فلسفى ينهج منهج المسلمين ، ويصل صداه إلى الدوائر الكنسية ، فتصدر قراراتها بتحريم الترجمات العربية والاكتفاء بالترجمات القديمة ، ومعنى ذلك أن تدور الفلسفة الأرسطالية فى نطاق المسيحية من جديد ، وأن تبتعد عن شروح العرب ذات الفكر الاستقلالى والطابع الحر الفريد .

وكان من المصادفات أن يتبوأ «فردريك الثانى» إمبراطورية صقلية سنة ١٢١٥ ، ومع اشتراكه فى بعض الحملات الصليبية إلى الشرق فقد كان عدوًّا من صفوف الأصدقاء – إن جاز هذا التعبير – وقد اتصف بصفات رائعة قل أن تجتمع فى إنسان ، فهو يجيد ست

لغات ، وينظم الشعر ، ويعجب بفنون التصوير والنحت والموسيقى ، ويؤلف فى علوم الحيوان والطير ، ويشذ عن تقاليد الكنيسة ، فيميل إلى التسامح الدينى ، ويجمع فى بلاطه اليهودى والمسيحى والمسلم ، وقد عشق الشرق ، فعاش عيشة رجاله ، يتكلم العربية ويناقش مفكرى العرب ، وَيَنْأَى عن التعصب فى جرأة وثورة ، وكان شديد الإعجاب بفلاسفة المسلمين الذين يقرأ كتبهم فى لغتها العربية ، ويظهر عطفًا كبيرًا على أساليبهم فى البحث والتفكير ، حتى تشيع لأكثر مانادوا به من معتقدات ، مما اضطر البابا إلى تكفيره وإعلان مروقه ، وقد أسس فى سنة ١٢٢٤ جامعة نابولى ، وجعل مهمتها الأساسية أن تدفع العِلْم العربى إلى أوربا ، فوضعت الترجمات على يد أساتذتها من العربية إلى اللاتينية ، وانتدب بعض أساتذتها إلى زيارة طليطلة سنة ١٢١٧ لنقل شروح ابن رشد على كتب أرسطو وترجمتها ، وقد قام الأساتذة الموفدون برسالتهم ، وأعانهم على تحقيقها نفر من أحبار اليهود ، ممن تتلمذوا على آثار ابن رشد وهتفوا بفلسفته .

وقد عقد الأستاذ «ديلاسى أوليرى» - المستشرق الإنجليزى - فصلاً طويلاً عن أثر الفلسفة العربية فى المدرسة اللاتينية بكتابه الشهير «الفكر العربى ومكانه فى التاريخ» ترجمة الدكتور تمام حسان ، تحدث فيه عن أثر الفلسفة الرشدية وأطوار تأثيرها حديثًا مسلسلاً ، يؤرخ خطوات هذا التأثير على مدى الأحقاب المتتالية ، حتى ينتهى بها إلى وضعها الراهن فى الفلسفة الحديثة ، فيذكر أن القرن الثالث عشر قد أكمل ترجمات آثار ابن رشد الفلسفية إلى اللاتينية جميعها ، وقد ذاعت على أيدى مؤيديه ومعارضيه جميعًا ، فالمؤيدون يبسطون ما قال الفيلسوف العربى ، والمعارضون يحاولون تفنيد آرائه بعد أن يبسطوها بسطًا واضحًا فتشتهر وتذيع ، بل إن أحد هؤلاء المعارضين يضطر إلى نقل كتاب «تهافت الفلسفة» للغزالى ، محاولاً أن يُفحم به آراء ابن رشد ، وكأنه يعتصم بالأفكار الإسلامية حين أعوزه أن يثبت للرجل الكبير !

وقد التفت الأستاذ «ديلاسى أوليرى» إلى نقطة عجيبة حقًّا حين قال[1] : «وكان ثمة حد فاصل بين ابن رشد الشارح - الذى عُمل باحترام كبير كشارح لنصوص أرسطو -

(١) الفكر العربى ومكانه فى التاريخ - ص ٢٩٣ .

وبين ابن رشد الفيلسوف الذى كانوا يعتبرونه ملحدًا ، وتبدو المسألة كما لو كان ثمة سياسة متعمدة للوصول إلى أرسطو عن طريق التضحية بالشرّاح العرب» .

فالذين يحترمون ابن رشد الشارح - بحجة أنهم يبحثون عن أرسطو قبل كل شىء - قد أخطأهم السبيل ، وهم فى حاجة إلى من يقول لهم لقد فرض عليكم الشارح نفسه مفكرًا وفيلسوفًا ، وهذا ما تحذرون ! أما إذا كانت هناك سياسة متعمدة للوصول إلى أرسطو عن طريق التضحية بالشرَّاح العرب ، فإن هذه السياسة لم تتحقق على وجهها المنشود ، لأن هؤلاء الباحثين عن أرسطو لم يُتَحْ لهم أن يجدوه عن غير طريق العرب ، حتى إنهم حين عثروا بعد ذلك على النصوص الإغريقية الأولى فى لغتهم اليونانية لم يستطيعوا فهمها إلا بالشروح العربية ، مقارنةً وتحليلاً ، إلى أن مضت مدة طويلة فُهِمَتْ فيها هذه النصوص الإغريقية فهمًا تُنوسِىَ معه ما ساعد على توضيحه من شروح ابن رشد .

والذين يتحدثون عن أثر الأندلس فى اليقظة الأوربية - فى غير مجال الفلسفة من المجالات الحضارية والفنية - لا يواجهون صعوبة كبيرة فى توضيح دورها الكبير ، حيث تبدو الحقائق سافرة غير ملتبسة ، ولكنهم حين يتحدثون عن أثر الأندلس فى مجال الفلسفة يجدون من يلبسون عليهم القول ، متعللين بأن قصارى جهد فلاسفة الإسلام أنهم تراجمة ناقلون ، أو شُرَّاح مفسرون ! وهم يتعمدون إخفاء ما يعرفونه من الحقائق فى فلسفة الإسلام ، إذ إن أسلوب مفكريه فى البحث الفلسفى قد تميز فى علم الكلام تميزًا يصعب إنكاره ، فهو إسلامى الوجهة والروح والمشرب ، وإن اصطنع سبيل الفلسفة فى البرهنة والاستدلال ، فذلك مما يمس الشكل الخارجى فى ترتيب الجدل ومَسَاقِه ، أما حقائقه الجوهرية فإسلامية خالصة ، جاء بها دين يرتكز على العقل ، ويدعو إلى الحرية والتفكير فى ملكوت السماوات والأرض .

وقد استطاع الأستاذ «ت. ج. ديوز» مؤلف تاريخ الفلسفة فى الإسلام أن ينصف المسلمين بعض الإنصاف حين تعرَّض لتحديد ما سمَّاه فضل المسلمين على الفلسفة النصرانية فى العصور الوسطى ، فقال[1] :

«أما أهم أثر للعرب فهو أن النصارى بعد قراءتهم لمؤلفات العرب - ولا سيما ابن رشد - صاروا يرون فى نظريات أرسطو رأيًا خاصًّا ، فاعتبروها الحقيقة العليا ، ولم يكن بد من أن يفضى هذا إلى تصادم بين علوم العقائد والفلسفة ، أو إلى إحراج بينهما ، بل كاد يؤدى إلى إنكار العقائد الكنسية ، وإذن فقد كان تأثير الفلسفة الإسلامية على تطور العقائد الكنسية فى العصور الوسطى حافزًا من ناحية ، وعاملاً على الهدم من ناحية أخرى ، لأن علم الكلام والفلسفة لم يستطيعا أن يسيرا فى العالم النصرانى مستقلين كل على جَادَّتِه ، لا يتعرض لصاحبه ، كما قد حدث عند مفكرى الإسلام ، ثم إن علوم العقائد النصرانية كانت فى القرون الأولى من نشوئها قد أفرطت فى أَخْذِ الفلسفة اليونانية ، حتى أصبح الانفصال بين الدين والفلسفة غير ممكن ، بل كانت تستطيع فوق هذا أن تهضم أشياء قليلة أخرى ، وكان هضم الفلسفة اليونانية أسهل على العقائد الإسلامية البسيطة التى ليس فيها كثير من الآراء الفلسفية منه على العقائد النصرانية المركبة ، بما فيها من فلسفة .... إلخ » .

وهكذا كان انتشار الفلسفة الإغريقية على يد العرب - ترجمةً ، وشرحًا ، وتعليقًا - تمهيدًا لقيام النهضة الأوربية فى النصف الأخير من القرن الخامس عشر ، إذ بدأت الفلسفة تؤتى ثمارها ، فتوجه العقل الأوربى توجيهًا جديدًا يستند إلى حرية الفكر ، وشعور الإنسان بشخصيته واقتداره على التفكير الذاتى مستقلاً عن غيره ، وقد ذهب فى هذه الحرية إلى أبعد مدى ، حتى تصدى لفلسفة أرسطو نفسها ، فنقدها ، وكشف عن ثُلومها ، واهتدى إلى فلسفة حديثة أنتجت مفكرين قادة ، وفلاسفة مصلحين ، وانتقلت بضوابطها وأهدافها إلى الأدب الخالص ، فبسطت آفاقه ، وعمقت مجراه ، وجعلته وليد تأمل دقيق ، وتحليل نافذ كشاف .

★★★

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام - ترجمة أبى ريدة ، ص ٢٨٦ .